٣- عصر الإمارتين

كان الشعر الأندلسى يمر طوال فترة الإمارتين ـ التابعة لدمشق والمستقلة[١]، أى: من سنة ٧١١ إلى ٩٢٩ م ـ فى دور تكوُّن غامض غير واضح المعالم، وقد تم هذا التطور وسط المنازعات والحروب التى صاحبت نشوءَ المجتمع الأندلسى الذى كان يتهيأ إذ ذاك للخروج إلى النور، وتتابعت حلقاته خلال هذه الأزمان التى كانت أسس النظام الجديد ترسو فيها على مهل، غير متأثرة بما ثار من الحروب التى اشتدت أثناء الفتن المتوالية. ولقد كان الشعر العربى فى الأندلس فى ذلك الحين صدى خافتًا لما كان يتردد فى جوانب المشرق القصىّ من شعر، ولكن أصوله ثبتت فى التربة الأندلسية نتيجة لعاملين أحدهما بعيد عن الآخر كل البعد: أولهما ما أولاه إياه بعض أمراء الأندلس (كالداخل والناصر وأمراء بنى أمية عامةً) من العناية، وما صرفه إليه بعض رؤساء العرب من اهتمام (مثل سعيد بن جودى الزعيم العربى الشجاع الذائع الصيت)، فقد كان أولئك وهؤلاء يُنفِّسُون بالشعر عما يثقل صدورهم من هموم، ويتغنون بأعمالهم ويتغزلون فى نسائهم به؛ وثانيهما انصراف جماعة من النظّامين ـ الذين لا يمتازون بموهبة ـ إلى قوله (مثل بكر الكنانى، وعباس بن ناصح، وغربيب بن عبد الله، وعبيد الله بن قرلمان، وعبيديس بن محمود، ومحمد بن يحيى القلفاط، وأبى

(١) يريد المؤلف بهذا «عصرَ الولاة» الذى يبدأ من فتح العرب للأندلس فى (٩١هـ/ ٧١١م) إلى قيام الإمارة الأموية الأندلسية على يد عبد الرحمن الداخل فى (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) ـ وكان يحكم الأندلس خلالها أمراء معينون من قبل خلافة دمشق ـ و «عصرَ الإمارة الأموية المستقلة»، ويبدأ من قيام الدولة الأموية الأندلسية فى (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) إلى تحويل عبد الرحمن الناصر إياها إلى خلافة فى (٣١٧هـ/ ٩٢٩م).

المخشى عاصم بن زيد، وأحمد بن إبراهيم بن قلزم، وحسانة التميمية، ومن إليهم). وإننا لنرى فى شعر أولئك الأخيرين كيف انتقل الشعر ـ رويدًا رويدًا ـ من النهج التقليدى الاتِّباعى القديم إلى نهج المحدثين من شعراء البلاط، وإن كان بعضهم قد نسج على منوال شعراء الجاهلية فجعلوا شعرهم ـ على ما فيه من فحش ـ دعوات إلى الحرب ونقائض لخصومهم، أو بلاغات ناطقة بلسان «القيادة العليا». وكان بعضهم الآخر أشبه بمجامر العود: يعيشون من رفد الأمراء ليضفوا على عروشهم القاتمة بهجة وجمالاً، وينطق شعرهم بنفحة سياسية واضحة. فإذا تميز من بينهم نفر وجدنا أن سر الامتياز لا يرجع إلى براعتهم فى الشعر بقدر ما يرجع إلى حياتهم الخاصة الطريفة، كيحيى بن حكم الغزال (توفى ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م) الذى أولع بملكة نورمانية، وعباس بن فرناس (توفى ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م) الذى ذاع أمره بسبب مبتكراته إذ إنه فعل ما فعله «إيكاروس» من قبل، فكسا نفسه بالريش وطار مسافة قصيرة، وامتازت شخصيته ـ إلى جانب ذلك ـ بميزات واضحة.

وإن ما يشوق دارسى هذه الفترة هو تتبُّع سلسلة الوافدين من أهل المشرق على الأندلس وما كانوا يحملونه من ضروب العلم والفن والحضارة، ولقد نقلت شعرَ بغداد إلى الأندلس أنغامُ الجوارى المشرقيات اللائى حُملن إليه، من أمثال «فمر» و «العجفاء». وقد حفظ لنا المقرى فى «النفح» (جـ ٤ ص ١٣٧ وما بعدها من طبعة محيى الدين) قصة تصور الحماس الذى أثارته هذه الأخيرة فى نفوس الأندلسيين ألطف تصوير: «قال الأرقمى: قال لى أبو السائب، وكان من أهل الفضل والنسك: هل لك فى أحسن الناس غناء؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بنى زهرة، فأذن لنا فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً فى مثلها وطوله فى السماء ستة عشر ذراعًا، وفى البيت نمرقتان قد ذهب عنهما اللُّحمة وبقى السَّدَى، وقد حشيتا بالليف، وكرسيان قد تفككا من قدمهما. ثم أطلعت علينا عجفاء كلفاء عليها هَرَوِىّ أصفر غسيل، وكأن وركيها فى خيط من وسخها. فقلت لأبى السائب: بأبى أنت، ما هذه؟ فقال: اسكت! فتناولتْ عودًا فغنَّتْ:

بِيَدِ الذى شغفَ الفؤادَ بِكُمْ تَفْرِيجُ ما أَلْقَى مِنَ الهَمِّ

قال: فتحسَّنتْ فى عينى، وبدا ما أذهب الكلف عنها، وزحف أبو السائب فزحفت معه، ثم تغنَّتْ:

برحَ الخَفاءُ فأيُّما بِكَ تكتمُ ولسوفَ يظهرُ ما تُسِرُّ فيُعْلَمُ

فألقيتُ طيلسانى وأخذتُ شادَكُونة فوضعتها على رأسى، وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة، وقام أبو السائب فتناول ربعة فى البيت فيها قوارير دهن فوضعها على رأسه، وصاح صاحب الجارية، وكان ألثغ: «قوانينى!» يعنى «قواريرى»، فاصطكت القوارير وتكسرت وسال الدهن على رأس أبى السائب وصدره وقال للعجفاء: لقد هجتِ لى داءً قديمًا! ثم وضع الربعة. وكنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية ـ صاحب الأندلس ـ فابتيعت له العجفاء وحُملت إليه». . (باختصار).

وقد وصل التأثير المشرقى أَوْجَهُ خلال هذه الفترة بوفود على بن نافع الملقب بزرياب «الطائر الأسود» على الأندلس، فقد خرج من بغداد الرشيد ناجيًا بنفسه من غيرة أستاذه إسحاق الموصلى، فتلقَّاه عبد الرحمن الأوسط (معاصر شارلمان) (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ / ٨٢١ ـ ٨٥٢م)، فى قرطبة،وأغدق عليه كَرَمَهُ، وقد حمل زرياب إلى الأندلس فيضاً من الأنغام المشرقية التى ترجع فى مناشئها البعيدة إلى أصول يونانية وفارسية، فأصبحت هذه الأغانى الأصلَ النغمى لموسيقانا (أى: الموسيقى الإسبانية)، وكان زرياب ينشد هذه الأغانى على عوده الخاص، الذى كان يضربه بمضراب من ريش الطيور، بعد أن زاد فيه وترًا خامسًا، وكانت الأوتار الأربعة الأولى هى الأصفر والأحمر والأبيض والأسود، وعن زرياب كذلك تلقَّن سروات قرطبة، وكبار أهلها ألطف مستحدثات المشارقة: «كتقصير الشعر دون الجباه، وتسويته على الحواجب، وتدويره إلى الأذن، وإسداله إلى الصدغين، وأكل بقلة الهليون

المسماة بلسانهم «الإسفراج»، واستعمال آنية الزجاج، وإيثار فرش أنطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان».

وقد ظهرت فى هذا العصر تجديدات وابتكارات لا نجد ما يشبهها فى الشعر القديم: منها نظم الأراجيز التاريخية التى اعتمد عليها «ريبيرا» ليقول بوجود أدب قصصى أندلسى سابق على ظهورها، ومنها اختراع «الموشحة» الذى كان له ـ فيما بعد ـ صدى بعيد، وتَنْسِبُ النصوص اختراعها إلى شاعر ضرير هو «مقدّم القبرى» الذى عاش فى أواخر عصر الإمارة.

* * *

obeikandl.com